بُنَاة دَوْلَـةِ الإسْلام

- ٣٠ -

الجَوادُ بْنُ الجَواد

قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ

رَضِيَ اللهُ عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ المُتَّقِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ

أما بعد:

فَإِنَّ صِفَةً وَاحِدَةً فِي المَرْءِ قَدْ تَكُونُ بَارِزَةً فِيهِ فَتُظْهِرُهُ سَوَاء أَكَانَتْ فِي الخُلُقِ أَمْ فِي الخِلْقَةِ، فَكَمْ مِنْ قَصِيرٍ عُرِفَ؟ وَكَمْ مِنْ طَوِيلٍ اشْتُهِرَ؟ وَكَمْ مِنْ جَوَادٍ ذَاعَ صِيتُهُ؟ وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ سَجَّلَتِ الرِّوَايَاتُ قَصَصَ بُطُولَتِهِ؟ وَكَمْ مِنْ دَاهِيَةٍ مَلأَتْ أَخْبَارُ ذَكَائِهِ الكُتُبَ فَبَرَزَ بَيْنَ الأَعْلاَمِ. أَمَّا قَيْسُ بنُ سَعْدٍ فَقَدِ امْتَازَ بِعِدَّةِ صِفَاتٍ تَكْفِي كُلُّ صِفَةٍ أَنْ تَجْعَلَ مِنْ الرَّجُلِ عَظِيماً.

لَقَدْ كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ سَيِّدَ الأَنْصَارِ مِنْ غَيْرِ مُدَافِعٍ وَابْنَ سَيِّدِهِمْ مِنْ غَيْرِ مُنَازِعٍ.

وَكَانَ أَحَدَ الأَجْوَادِ المَشْهُورِينَ حَتَّى سَارَتِ الرُّكْبَانُ بِكَرَمِهِ،

وَلَمْ يكُنْ أَحَدٌ إلاَّ وَيَعْرِفُ هَذِهِ السِّمَةَ فيهِ، وَفِي أَبيهِ. فيَأْتِيهِ أَصْحَابُ الحَاجَةِ، وَيَنْحَرُ لِلجَّائِعِينَ، وَيُعْطِي مَنْ يَطْلُبُ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ بِكَرَمِهِ.

وَكَانَ دَاهِيَةً يَعْجِزُ أَهْلُ الدَّهَاءِ عَنْ مُجَارَاتِهِ، وَيَقِفُ أَهْلُ المَكْرِ حَيَارَى أَمَامَ حِيَلِهِ، وَأَهْلُ الخِدَاعِ مُفَكِّرِينَ فِي خِطَطِهِ.

وَيُعَدُّ مِنَ الأَبْطَالِ المَشْهُورِينَ يَخَافُهُ الخُصُومُ، وَيَرْهَبُهُ الأَعْدَاءُ وَتَحْسَبُ الجُيُوشُ لَهُ حِسَاباً، يَتَقَدَّمُ الجَحَافِلَ غَيْرَ مُبَالٍ بِالَّذِينَ أَمَامَهُ يَفِلُّ حَدَّهُمْ، وَيَخْضُدُ شَوْكَتَهُمْ، فَيَتَرَاجَعُونَ، وَيَعُودُ بِالغُنْمِ.

وَيُعَدُّ مِنَ القَادَةِ المُوَفَّقِينَ، قَادَ السَّرَايَا، وَتَقَدَّمَ الجُمُوعَ، وَهَزَمَ الرِّجَالَ، وَتَرَاجَعَتْ أَمَامَهُ القُوَاتُ. وَتَوَلَّى الإِمَارَةَ فَضَبَطَ المِصْرَ، وَنَجَحَ فِي كَسْبِ وُدِّ الرَّعِيَّةِ.

خَطِيبٌ مُفَوَّهٌ، وَشَاعِرٌ سَعِيدٌ، وَمَهْمَا أَعْطَيْتُهُ مِنْ صِفَاتِ الخَيْرِ فَلَنْ أُوَفِّيَهُ حَقَّهُ، وَمَا نَظَرْتُ فِي سِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ إلاَّ رَأَيْتُ أَنَّهُ قَدِ امْتَازَ بِذَلِكَ.

فَهُوَ سَيِّدٌ، أَمِيرٌ، خَطِيبٌ، بَطَلٌ، كَرِيمٌ، طَوِيلُ الجِسْمِ، طَوِيلُ اليَدِ فِي العَطَاءِ، طَوِيلُ النِّجَادِ فِي الحَرْبِ، طَوِيلُ

البَاعِ فِي الكَلَامِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

وَرِثَ قَيْسٌ الجُودَ وَالشَّجَاعَةَ، وَجَاءَ الإِسْلَامُ فَشَحَذَ طِبَاعَهُ، وَأَلَانَ دَهَاءَهُ، وَوَضَعَ جُودَهُ وَشَجَاعَتَهُ فِي مَوْضِعِهِمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَكَانَ هَذَا الرَّجُلَ العَظِيمَ قَيْسَ بنَ سَعْدٍ.

جِسْمُ قَيْسٍ

كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ رَجُلاً ضَخْماً جَسِيماً، صَغيرَ الرَّأْسِ، لَهُ لِحْيَةٌ فِي دَقْنِهِ وكَانَ إِذَا رَكِبَ الحِمَارَ العَالِي خَطَّتْ رِجْلاَهُ بِالأَرْضِ.

● وَفَدَ عَلَى مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَكْرَمَهُ مُعَاوِيَةُ، وَقَدَّمَهُ، وَحَظِيَ عِنْدَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ مَعَ الوُفُودِ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ قَدِمَ كِتَابُ مَلِكِ الرُّومِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفِيهِ: أَنِ ابْعَثْ إِليَّ بِسَرَاوِيلَ أَطْوَلِ رَجُلٍ فِي العَرَبِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا أَرَانَا إِلاَّ قَدِ احْتِجْنَا إِلَى سَرَاوِيلِكَ؟ ـ وَكَانَ قَيْسٌ مَدِيدُ القَامَةِ جِدّاً لاَ يَصِلُ أَطْوَلُ الرِّجَالِ إِلى صَدْرِهِ ـ فَقَامَ قَيْسٌ فَتَنَحَّى ثُمَّ خَلَعَ سَرَاوِيلَهُ فَأَلْقَاهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى مَنْزِلِكَ ثُمَّ أَرْسَلْتَ بِهَا إِلَيْنَا، فَأَنْشَأَ قَيْسٌ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ:

أَرَدْتُ بِهَا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا
سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالوُفُودُ شُهُودُ

وَأَلاَّ يَقُولُوا غَابَ قَيْسٌ وَهَذِهِ
سَرَاوِيلُ عَادِيٍّ نَمَتْهُ ثَمُودُ

وَإِنِّي مِنَ الحَيِّ اليَمَانِيِّ لَسَيِّدٌ
وَمَا النَّاسُ إلاَّ سَيِّدٌ وَمَسُودُ

فَكِدْهُمْ بِمِثْلِي إِنَّ مِثْلِي عَلَيْهِمُ
شَدِيدٌ وَخَلْقِي فِي الرِّجَالِ مَدِيدُ

وَفَضَّلَنِي فِي النَّاسِ أَصْلٌ وَوَالِدٌ
وَبَاعٌ بِهِ أَعْلُو الرِّجَالَ سَدِيدُ

فَأَمَرَ مُعَاوِيَةُ أَطْوَلَ رَجُلٍ فِي الوَفْدِ فَوَضَعَهَا عَلَى أَنْفِهِ فَوَقَعَتْ بِالأَرْضِ.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ مَلِكَ الرُّومِ بَعَثَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِرَجُلَيْنِ مِنْ جَيْشِهِ يَزْعُمُ أَنَّ أَحَدَهُمَا أَقْوَى الرُّومِ، وَالآخَرَ أَطْوَلُ الرُّومِ، فَانْظُرْ فِي قَوْمِكَ مَنْ يَفُوقُهُمَا فِي قُوَّةِ هَذَا وَطُولِ هَذَا؟ فَإِنْ كَانَ فِي قَوْمِكَ مَنْ يَفُوقُهُمَا بَعَثْتُ إِلَيْكَ مِنَ الأَسَارَى كَذَا وَكَذَا، وَمِنَ التُّحَفِ كَذَا وَكَذَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي جَيْشِكَ مَنْ هُوَ أَقْوَى وَأَطْوَلُ مِنْهُمَا فَهَادِنِي ثَلاَثَ سِنِينَ. فَلَمَّا حَضَرَا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ قَالَ: مِنْ لِهَذَا القَوِيِّ؟ فَقَالُوا: مَا لَهُ إلاَّ أَحَدَ رَجُلَيْنِ إِمَّا مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ، أَوْ عَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ. فَجِيءَ

بِمُحَمَّدِ بن ِ الحَنَفِيَّةِ ـ وَهُوَ ابنُ عَلِيٍّ بن ِ أَبِـي طَالِـبٍ، فَلَمَّـا اجْتَمعَ النَّاسُ عِنْدَ مُعاوِيَةَ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَتَعْلَمُ فِيمَ أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لاَ! فَذَكَرَ لَهُ أَمْـرَ الرُّومِـيِّ وَشِـدَّةَ بَأْسِـهِ، فَقَـالَ لِلرُّومِيِّ: إِمَّا أَنْ تَجْلِسَ لِي أَوْ أَجْلِسَ إِلَيْكَ، وَتُنَاوِلُنِي يَدَكَ أَوْ أُنَاوِلُكَ يَدِي، فَأَيُّنَا قَدِرَ عَلَى أَنْ يُقِيمَ الآخَرَ مِنْ مَكَانِهِ، غَلَبَهُ، وَإِلاَّ غُلِـبَ. فَقَـالَ لَهُ: مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: تَجلِسُ أَوْ أَجْلِسُ؟ فَقَالَ لَهُ الرُّومِيُّ: بَلْ اجْلِسْ أَنْتَ، فَجَلَسَ مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ، وَأَعْطَى الرُّومِيَّ يَدَهُ فَاجْتَهَدَ الرُّومِيُّ بِكُلِّ مَا يقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ القُوَّةِ أَنْ يُزِيلَهُ مِنْ مَكَانِهِ أَوْ يُحَرِّكَهُ لِيُقِيمَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَلاَ وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، فَغُلِبَ الرُّومِيُّ، عِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِمَـنَ مَعَـهُ مِنَ الوُفُودِ مِنْ بِلاَدِ الرُّوم ِ أَنَّهُ قَدْ غُلِبَ. ثُمَّ قَامَ مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ فَقَالَ لِلرُّومِيِّ: اجْلِسْ لِي، فَجَلَسَ وَأَعْطَـى مُحَمَّـداً يَدَهُ فَمَـا أَمْهَلَهُ أَنْ أَقَامَهُ سَرِيعَـاً، وَرَفَعَـهُ فِي الهَـوَاءِ ثُمَّ أَلْقَـاهُ عَلَـى الأَرْض ِ فَسُرَّ بِذَلِكَ مُعَاوِيَةُ سُرُوراً عَظِيماً. وَنَهَضَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ فَتَنَحَّى عَن ِ النَّاس ِ، ثُمَّ خَلَعَ سَرَاوِيلَهُ وَأَعْطَاهَـا لِذَلِكَ الرُّومِيِّ الطَوِيل ِ فَلَبِسَهَا، فَبَلَغَتْ إِلَى ثَدْيَيْهِ، وَأَطْرَافُهَـا تَخُـطُّ بالأَرْض ِ، فَاعْتَرَفَ الرُّومِيُّ بِالغُلْبِ، وَبَعَـثَ مَلِكُهُـمْ مَا كَانَ الْتَزَمَهُ لِمُعَاوِيَةَ. وَعَاتَـبَ الأَنْصَـارُ قَيْسَ بـنَ سَعْـدٍ فِي خَلْعِـهِ سَرَاوِيلَهُ بِحَضْرَةِ النَّاس ِ، فَقَالَ: ذَلِكَ الشِّعْرَ المُتَقَدِّمَ مُعْتَـذِراً

بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ أَلْزَمَ لِلْحِجَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الرُّومِ، وَأَقْطَعَ لَوْ حَاوَلُوه[١].

وَكَانَ قَيْسٌ مَوْصُوفاً مَعَ جَمَاعَةٍ قَدْ بَذُّوا النَّاسَ طُولاً وَجَمَالاً مِنْهُمْ: العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَوَلَدُهُ، وَجَرِيرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيُّ، وَالأَشْعَثُ بنُ قَيْسٍ الكِنْدِيُّ، وَعَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ، وَابْنُ جِذْلِ الطَّعَّانُ الكِنَانِيُّ، وَأَبُو زُبَيْدٍ الطَّائِيُّ، وَزَيْدُ الخَيْلِ بنُ مُهَلْهَلٍ الطَّائِيُّ. وَكَانَ أَحَدُ هَؤُلاَءِ يُقَبِّلُ المَرْأَةَ عَلَى الهَوْدَجِ، وَكَانَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ مُقَبِّلُ الظُّعُنِ[٢].

وَكَانَ قَيْسٌ سِنَاطاً[٣] فَكَانَتِ الأَنْصَارُ تَقُولُ: لَوَدِدْنَا أَنَّا اشْتَرَيْنَا لَهُ لِحْيَةً بِأَنْصَافِ أَمْوَالِنَا[٤].

جُودُ قَيْسٍ

● بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا عُبَيْدَةَ فِي

---

(١) البداية والنهاية.
(٢) الكامل للمبرد المتوفي ٢٨٥.
(٣) السِناط والسنَوط: أن يكون في الذقن شيء من الشعر، ولا يكون في العارضين شيء، فإن لم يكن فيهما جميعاً شيء فهو الثط.
(٤) الكامل المصدر نفسه.

سَرِيَّةٍ فِيهَا المُهَاجِرونَ وَالأَنْصَارَ، وَهُمْ ثَلاثُمِائَةٍ، إِلَى سَاحِلِ البَحْرِ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ. فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِالزَّادِ، فَجُمِعَ؛ حَتَّى كَانُوا يَقْتَسِمُونَ التَّمْرَةَ. فَقَالَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ: مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي تَمراً بِجُزُرٍ، يوَفِّينِي الجُزُرَ هَا هُنَا وأُوفِيهِ التَّمْرَ بِالمَدِينَةِ. فَجَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: يَا عَجَباً لِهَذَا الغُلامِ يَدَّيَّنُ فِي مَالِ غَيْرِهِ. فَوَجَدَ رَجُلاً مِنْ جُهَيْنَةَ، فَسَاوَمَهُ، فَقَالَ: مَا أَعْرِفُكَ! قَالَ: أَنَا قَيْسُ بنُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ بنِ دُلَيمٍ. فَقَالَ: مَا أَعْرَفَنِي بِنَسَبِكَ، أَمَا إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدٍ خُلَّةً سَيِّدِ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَابْتَاعَ مِنْهُ خَمْسَ جَزَائِرَ، كُلُّ جَزُورٍ بِوَسَقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، وَأَشْهَدَ لَهُ نَفَراً. فَقَالَ عُمَرُ: لاَ أَشْهَدُ يَدَّيَّنُ وَلاَ مَالَ لَهُ، إِنَّمَا المَالُ لأَبِيهِ، فَقَالَ الجُهَنِيُّ: وَاللَّهِ مَا كَانَ سَعْدٌ لِيُخْنِيَ بِابْنِهِ فِي شِقَّةٍ مِنْ تَمْرٍ، وَأَرَى وَجْهاً حَسَناً، فَنَحَرَهَا لَهُمْ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ. فَلَمَّا كَانَ فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ نَهَاهُ أَمِيرُهُ، وَقَالَ: تُرِيدُ أَنْ تَخْرِبَ ذِمَّتَكَ وَلاَ مَالَ لَكَ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ أَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وَمَعَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ لِقَيْسٍ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَلاَّ تَنْحَرَ، أَتُرِيدُ أَنْ تَخْفِرَ ذِمَّتَكَ وَلاَ مَالَ لَكَ؟ فَقَالَ قَيْسٌ: يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، أَتُرَى أَبَا ثَابِتٍ وَهُوَ يَقْضِي دَيْنَ النَّاسِ،

وَيحْمِلُ الكَلَّ، وَيُطْعِمُ فِي المجَاعَةِ، لاَ يَقْضِي سِقَةَ تَمْرٍ لِقَوْمٍ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! فَكَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ يلِينَ لَهُ وَيتْرُكُهُ حَتَّى جعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: اعْزِمْ عَلَيْهِ! فعزم عَلَيْهِ فَأَبى عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرَ. فَبَقِيَتْ جزُرَانِ معَهُ، حَتَّى وَجَدَ القَوْمُ الحُوتَ[1]، فَقَدِمَ بِهِمَا قَيْسٌ المَدِينَةَ ظَهْراً يَتعَاقَبُونَ عَلَيْهَا.

وَبَلَغَ سَعْدٌ مَا كَانَ أَصَابَ القَوْمَ مِنَ المَجَاعَةِ فقَالَ: إِنْ يَكُنْ قَيْسٌ كَمَا أَعْرِفُهُ فَسَوْفَ يَنْحَرُ لِلْقَوْمِ. فَلَمَّا قَدِمَ قَيْسٌ لَقِيَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ فِي مَجَاعَةِ القَوْمِ حَيْثُ أَصابَهُمْ؟ قَالَ نَحَرْتُ. قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرْ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نَحرْتُ. قَالَ: أَصَبْتَ! ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نَحَرْتُ. قَالَ: أَصبْتَ، انْحَرْ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نُهِيتُ. قَالَ: وَمَنْ نَهَاكَ؟ قَالَ: أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ أَمِيرِي. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّهُ لاَ مَالَ لِي، وَإِنَّمَا المَالُ لأَبِيكَ. فَقُلْتُ: أَبِي يَقْضِي عَنِ الأَبَاعِدِ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيُطْعِمُ فِي المَجَاعَةِ، وَلاَ يَصْنَعُ هَذَا بِي! قَالَ: فَلَكَ أَرْبَعُ حَوَائِطٍ. وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَاباً، وَأَتَى بِالكِتَابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ فَشَهِدَ فِيهِ، وَأَتَى عُمَرَ فَأَبَى أَنْ يَشْهَدَ فِيهِ، وَأَدْنَى حَائِطٍ مِنْهَا يَجُذُّ خَمْسِينَ وَسَقاً. وَقَدِمَ البَدَوِيُّ مَعَ قَيْسٍ فَأَوْفَاهُ

---

(١) ألقى لهم البحر حوتاً كبيراً أكل منه القوم اثنتي عشرة ليلة.

سِقَتَهُ وَحِمْلَهُ وَكَسَاهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِعْلُ قَيْسٍ فَقَالَ: إِنَّهُ فِي بَيْتِ جُودٍ[1].

● يَرْوِي ابنُ عَسَاكِرَ أَنَّ قَيْساً كَانَ يَسْتَدِينُ وَيُطْعِمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: إِنْ تَرَكْنَا هَذَا الفَتَى أَهْلَكَ مَالَ أَبِيهِ، فَمَشَيَا فِي النَّاسِ، فَقَامَ سَعْدُ عِنْدَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: مَنْ يَعْذِرُنِي مِن ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ وابْنِ الخَطَّابِ، يُبَخِّلاَنِ عَلَيَّ ابْنِي.

● وَقَفَتْ عَلَى قَيْسٍ عَجُوزٌ، فَقَالَتْ: أَشْكُو إِلَيْكَ قِلَّةَ الجِرْذَانِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الكِنَايَةَ، امْلَؤُوا بَيْتَهَا خُبْزاً وَلَحْماً وَسَمْناً وَتَمْراً.

● كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ يُطْعِمُ النَّاسَ فِي أَسْفَارِهِ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا نَفَذَ مَا مَعَهُ آسْتَدَانَ، وَكَانَ يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ، هَلُمُّوا إِلَى اللَّحْمِ وَالثَّرِيدِ.

● بَاعَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ مَالاً مِنْ مُعَاوِيَةَ بِتِسْعِينَ أَلْفاً، فَأَمَرَ مَنْ نَادَى فِي المَدِينَةِ، مَنْ أَرَادَ القَرْضَ، فَلْيَأْتِ. فَأَقْرَضَ

(١) انظر المغازي للواقدي، والسيرة الحلبية، وسير أعلام النبلاء.

أَرْبَعِينَ أَلْفاً، وَأَجَازَ بِالبَاقِي، وَكَتَبَ عَلَى مَنْ أَقْرَضَهُ. فَمَرِضَ مَرَضاً قَلَّ عُوَّادُهُ، فَقَالَ لَزَوْجَتِهِ قُرَيْبَةَ أُخْتِ الصِّدِّيقِ: لِمَ قَلَّ عُوَّادِي؟ قَالَتْ: لِلدَّيْنِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِصَكِّهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَالاً وَفَعَالاً، فَإِنَّهُ لاَ تَصْلُحُ الفَعَالُ إِلاَّ بِالمَالِ.

● قَسَّمَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ مَالَهُ بَيْنَ وَلَدِهِ، وَخَرَجَ إِلَى الشَّامِ، فَمَاتَ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ بَعْدُ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ إِلَى ابْنِهِ قَيْسٍ، فَقَالاَ: نَرَى أَنْ تَرُدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ شَيْئاً صَنَعَهُ سَعْدٌ، وَلَكِنْ نَصِيبِي لَهُ.

● اخْتَلَفَ ثَلاثَةٌ عِنْدَ الكَعْبَةِ فِي أَكْرَمِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَعْفَرٍ، وَقَالَ الآخَرُ: قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، وَقَالَ الثَّالِثُ: عَرَابَةُ الأَوْسِيُّ، فَتَمَارُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى ارْتَفَعَ ضَجِيجُهُمْ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ: فَلْيَذْهَبْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ إِلَى صَاحِبِهِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْرَمُ مِنْ غَيْرِهِ، فَلْيَنْظُرْ مَا يُعْطِيهِ وَلْيَحْكُمْ عَلَى العَيَانِ. فَذَهَبَ صَاحِبُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَعْفَرٍ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الغَرْزِ لِيَذْهَبَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ! ابنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِهِ، قَالَ: فَأَخْرَجَ رِجْلَهُ مِنْ الغَرْزِ وَقَالَ: ضَعْ رِجْلَكَ وَاسْتَوِ عَلَيْهَا

فَهِيَ لَكَ بِمَا عَلَيْهَا، وَخُذْ مَا فِي الحَقِيبَةِ، وَلاَ تَحِدْ عَنِ السَّيْفِ فَإِنَّهُ مِنْ سُيُوفِ عَلِيٍّ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِنَاقَةٍ عَظِيمَةٍ وَإِذَا فِي الحَقِيبَةِ أَرْبَعَةُ آلاَفِ دِينَارٍ، وَمَطَارِفَ مِنْ خَزٍّ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأَجَلُّ ذَلِكَ سَيْفُ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَمَضَى صَاحِبُ قَيْسٍ فَوَجَدَهُ نَائِماً، فَقَالَتْ لَهُ الجَارِيَةُ: مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: ابنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِهِ، قَالَتْ: فَحاجَتُكَ أَيْسَرُ مِنْ إِيْقَاظِهِ، هَذَا كِيسٌ فِيهِ سَبْعُمِائَةِ دِينَارٍ مَا فِي دَارِ قَيْسٍ مَالٌ غَيْرُهُ اليَوْمَ، وَاذْهَبْ إِلَى مَوْلاَنَا فِي مَعَاطِنِ الإِبِلِ فَخُذْ لَكَ نَاقَةً وَعَبْدَاً، وَاذْهَبْ رَاشِدَاً. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قَيْسٌ مِنْ نَوْمِهِ أَخْبَرَتْهُ الجَارِيَةُ بِمَا صَنَعَتْ، فَأَعْتَقَهَا شُكْرَاً عَلَى صَنِيعِهَا ذَلِكَ، وَقَالَ: هَلاَّ أَيْقَظْتِينِي حَتَّى أُعْطِيهُ مَا يَكْفِيهِ أَبَدَاً، فَلَعَلَّ الَّذِي أَعْطَيْتِيهِ لاَ يَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعَ حَاجَتِهِ.

وَذَهَبَ صَاحِبُ عَرَابَةَ الأَوْسِيِّ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يُرِيدُ الصَّلاَةَ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَبْدَينِ لَهُ ـ وَقَدْ كَفَّ بَصَرُهُ ـ فَقَالَ: يَا عَرَابَةُ! فَقَالَ: قُلْ، فَقَالَ: ابنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِهِ، قَالَ: فَخَلَّى عَنِ العَبْدَيْنِ ثُمَّ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ، بِاليُمْنَى عَلَى اليُسْرَى، ثُمَّ قَالَ: أَوَّه أَوَّه، واللَّهِ مَا أَصْبَحْتُ وَلاَ أَمْسَيْتُ وَقَدْ تَرَكتِ الحُقُوقُ مِنْ مَالِ عَرَابَةَ شَيْئَاً، وَلَكِنْ خُذْ

هَذَيْنِ العَبْدَيْنِ ، قَالَ: مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ، فَقَالَ: إِنْ لَمْ تَأْخُذْهُمَا فَهُمَا حُرَّانِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَعْتِقْ، وَإِنْ شِئْتَ فَخُذْ. وَأَقْبَلَ يَتَلَمَّسُ الحَائِطَ بِيَدِهِ، قَالَ: فَأَخَذَهمَا وَجَاءَ بِهِمَا إِلَى صَاحِبَيْهِ، قَالَ: فَحَكَمَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ ابنَ جَعْفَرٍ قَدْ جَادَ بِمَالٍ عَظِيمٍ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ لَهُ، إِلاَّ أَنَّ السَّيْفَ أَجَلُّهَا. وَأَنَّ قَيْساً أَحَدُ الأَجْوَادِ، حَكَّمَ مَمْلُوكَتَهُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ وَاسْتَحْسَنَ فِعْلَهَا وَشَكَرَ لَهَا عَلَى مَا فَعَلَتْ. وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ أَسْخَى الثَّلاَثَةِ عَرَابَةُ الأَوْسِيُّ؛ لأَنَّهُ جَادَ بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُهُ، وَذَلِكَ جَهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ[1].

وَيَجِبُ أَنْ نُلاَحِظَ أَنَّ أُعْطِيَةَ قَيْسٍ لَمْ تَكُنْ أُعْطِيَةً مِنْهُ مُبَاشَرَةً، وَإِنَّمَا إِعْطَاءُ مَمْلُوكَتِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَعطَى لَقَدَّمَ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، بِحَيْثُ يَكْفِيهِ أَبَداً.

● اقْتَرَضَ رَجُلٌ مِنْ قَيْسِ بنِ سَعْدٍ ثَلاَثِينَ أَلْفاً، فَلَمَّا جَاءَ لِيُوفِّيَهُ إِيَاهَا قَالَ لَهُ قَيْسٌ: إِنَّا قَوْمٌ مَا أَعْطَيْنَا أَحَداً شَيْئَاً فَنَرْجعَ فِيهِ.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ وفيات عام ٥٩.

شَجَاعَةُ قَيْسٍ

● بَعْدَ مُغَادَرَةِ قَيْسٍ مِصْرَ اتَّجَهَ نَحْوَ المَدِينَةِ فَتَوامَرَ فِيهِ الأَسْوَدُ بنُ أَبِي البَخْتَرِيِّ ، وَمَرْوَانُ أَن يُبَيِّتَاهُ، وَبَلَغَ ذَلِكَ قَيْساً، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَقَبِيحٌ أَنْ أُفَارِقَ عَلِيّاً وَإِنْ عَزَلَنِي، وَاللَّهِ لأَلْحَقَنَّ بِهِ، وَحَدَّثَهُ بِمَا كَانَ يَعْتَمِدُ بِمِصْرَ. فَعَرَفَ عَلِيٌّ أَنَّ قَيْساً كَانَ يُدَارِي أَمْرَاً عَظِيماً بِالمَكِيدَةِ، فَأَطَاعَ عَلِيٌّ قَيْساً فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، وَجَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَةِ جَيْشِهِ. وَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ يُؤَنِّبُ مَرْوَانَ وَالأَسْوَدَ، وَقَالَ: أَمْدَدْتُمَا عَلِيّاً بِقَيْسٍ؟ وَاللَّهِ لَوْ أَمْدَدْتُمَاهُ بِمَائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، مَا كَانَ بِأَغْيَظَ عَلَيَّ مِنْ إِخْرَاجِكُمَا قَيْساً إِلَيْهِ.

● وَاسْتَشْهَدَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَوَقَفَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَعَ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، غَيْرَ مُبَالٍ بِالأَخْطَارِ، وَقَادَ قَيْسٌ خَمْسَةَ آلَافٍ مِنَ الرِّجَالِ كَانُوا قَدْ حَلَقُوا رُؤُسَهُمْ بَعْدَ وَفَاةِ عَلِيٍّ، وَقَاتَلُوا أَهْلَ الشَّامِ قِتَالاً عَنِيفاً.

وَيُؤْثِرُ الحَسَنُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ يُضَمِّدَ جِرَاحَ المُسْلِمِينَ الَّتِي طَالَ نَزِيفُهَا، وَيَضَعَ حَدّاً لِلْقِتَالِ الَّذِي أَفْنَى الكَثِيرَ مِنَ

المُسْلِمِينَ وَالَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يُوجِّهُوا جُهُودَهُمْ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمُجَالَدَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَيَدْخُلَ فِي مُفَاوَضَةٍ مَعَ مُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ يُبَايِعُهُ.

وَيَأْبَى قَيْسٌ أَنْ يَدْخُلَ فِي البَيْعَةِ، وَيَقُولُ لأَصْحَابِهِ: إِنْ شِئْتُمْ جَالَدْتُ بِكُمْ أَبَداً حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَخَذْتُ لَكُمَ أَمَاناً، فَقَالُوا: خُذْ لَنَا أَمَاناً، وَلَمْ يَأْخُذْ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً. وَلَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى المَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، جَعَلَ يَنْحَرُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ جَزُوراً حَتَّى بَلَغَ الصِّرَارَ(١).

دَهَاءُ قَيْسٍ

كَانُوا يَعُدُّونَ قَيْساً مِنْ دُهَاةِ العَرَبِ، وَكَانَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، وَقَالُوا: دُهَاةُ العَرَبِ حِينَ ثَارَتِ الفِتْنَةُ خَمْسَةٌ: مُعَاوِيَةُ، وَعَمْرٌو، وَقَيْسٌ، وَالمُغِيرَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ بُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ.

وَكَانَ قَيْسٌ وَابْنُ بُدَيْلٍ مَعَ عَلِيٍّ، وَعَمْرُو بنُ العاصِ مَعَ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ المُغِيرَةُ مُعْتَزِلاً بِالطَّائِفِ حَتَّى حَكَمَ الحَكَمَانِ.

---

(١) الصرار: موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

● عَيَّنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ قَيْسَاً أَمِيرَاً عَلَى مِصْرَ وكانَ حازِمَاً، كَانَ يَقُـولُ: لَوْلاَ أَنَّ المَـكَرَ فُجُـورٌ لَمَـكَرْتُ مكْرَاً تَضْطَرِبُ مِنْهُ أَهْلُ الشَّامِ بَيْنَهُمْ، فَكَتَـبَ مُعَـاوِيَةُ وَعَمْـرُوُ إِلَيْهِ يَدْعُوَانِهِ إِلَى مُبَايَعَتِهِمَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا كِتَاباً فِيهِ غِلْظٌ. فَكَتَبَا إِلَيْهِ كِتَاباً فِيْهِ عُنْفٌ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا كِتَاباً فِيْهِ لِينٌ. فَلَمَّا قَرَآهُ، عَلِمَا أَنَّهُمَا لاَ يَدَانِ لَهُمَا بِمَكْرِهِ. فَأَذَاعَا بِالشَّامِ أَنَّهُ قَدْ تَابَعنَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيَّاً، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: أَدْرِكْ مِصْـرَ فَإِنَّ قَيْسَـاً قَدْ بَايَعَ مُعَاوِيَةَ. فَبَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ وَمُحَمَّدَ بنَ أَبِي حُذَيْفَةَ إِلَى مِصْرَ، وَأَمَّرَ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ. فَلَمَّا قَدِمَا عَلَى قَيْسٍ بِنَزْعِهِ، عَلِمَ أَنَّ عَلِيَّاً قَدْ خُدِعَ، فَقَالَ لِمُحَمَّدٍ: يَا ابْنَ أَخِي احْذَرْ، يَعْنِي أَهْلَ مِصْرَ، فَإِنَّهُمْ سَيُسَلِمُونَكُمَا فَتُقْتَلاَنِ. فَكَانَ كَمَا قَالَ.

تَقَوَى قَيْسٍ

● كَانَ قَيْسُ بـنُ سَعْـدٍ لاَ يَزَالُ هَكَذَا رَافِعَـاً أُصْبُعَـهُ المُسَبِّحَةَ، يَعْنِي يَدْعُو.

● قَالَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ: لَوْلاَ أَنِّـي سَمِعْـتُ رَسُـولَ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّـمَ، يَقُـولُ: «المَكْرُ وَالخَدِيعَـةُ فِي النَّارِ»[1]. لَكُنْتُ مِنْ أَمْكَرِ هَذِهِ الأُمَّةِ.

---

(١) أخرجه الطبراني، والحاكم، وإسحاق بن راهويه.

● قَالَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ: لَوْلاَ الإِسْلاَمُ، لَمَكَرْتُ مَكْراً لاَ تُطِيقُهُ العَرَبُ.

● كَانَ كَثِيرَ الخَشْيَةِ لِلَّهِ، مَا يَقُومُ بِتَصَرُّفٍ حَتَّى يَحْسِبَهُ بِمِيزَانِ الإِسْلاَمِ.

إِمْرَةُ قَيْسٍ

● لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً مِنْ مَكَّةَ، أَخَذَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ بِيَدِ ابْنِهِ قَيْسٍ، وَقَدَّمَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: هَذَا خَادِمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قَيْسٍ سِمَةَ الشَّجَاعَةِ وَأَمَارَاتِ القُوَّةِ وَالصَّلاَحِ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ، وَبَقِيَ يَخْدُمُهُ عَشْرَ سَنَوَاتٍ، هِيَ حَيَاةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمَدِينَةِ. وَيَقُولُ أَنَسٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: إِنَّ قَيْسَ بنَ سَعْدٍ كَانَ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرَطِ مِنَ الأَمِيرِ[1].

● كَانَ صَاحِبَ لِوَاءِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ.

---

(١) رواه البخاري في الأحكام.

● تَسَلَّمَ رَايَةَ الأَنْصَارِ مِنْ أَبِيهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ قَالَ وَالِدُهُ: اليَوْمُ يَوْمُ المَلْحَمَةِ اليَوْمُ تُسْتَحَلُّ الحُرُمَةُ.

● تَوَلَّى أَمْرَ مِصْرَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاَثِينَ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، ثُمَ عُزِلَ عَنْهَا.

● كَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ عَلِيٍّ يَوْمَ صِفِّينَ وَالنَّهْرَوَانِ.

● أَبَى الدُّخُولَ فِيمَا دَخَلَ فِيْهِ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَادَ خَمْسَةَ آلافٍ ضِدَّ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ الأَمَانَ لِجَمَاعَتِهِ مِنَ الخَلِيفَةِ الجَدِيدِ، مُعَاوِيَةَ، وَسَارَ بَعْدَهَا إِلَى المَدِينَةِ.

حَيَاةُ قَيْسٍ

وُلِدَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِالمَدِينَةِ حَوَالِي العَامِ الثَّامِنِ عَشَرَ قَبْلَ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ، أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَعَاشَ حَيَاةَ الأَثْرِيَاءِ الأَجْوَادِ، وَشَعَّ نُورُ الإِسْلاَمِ فِي المَدِينَةِ، وَأَسْلَمَ أَبُوهُ سَعْدُ أَحَدُ سَادَةِ الخَزْرَجِ، وَأَسْلَمَ وَلَدُهُ قَيْسُ، وَانْطَلَقَ سَعْدُ إِلَى مَكَّةَ وَشَهِدَ المَوْسِمَ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِ وَالْتَقَى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالعَقَبَةِ

وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْعَةَ الحَرْبِ مَعَ مُسْلِمِي قَوْمِهِ، وَاخْتَارَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، مِنْ مُسْلِمِي المَدِينَةِ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، كَانَ سَعْدُ أَحَدَهُمْ.

وَابْتَدَأَ المُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ وَقَدِ اشْتَدَّ أَذَى قَوْمِهِمْ عَلَيْهِمْ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمُ المُسْلِمِينَ هُنَاكَ، وَتَلَقَّاهُمُ الأَنْصَارُ بِالتَّرْحِيبِ، وَفَتَحُوا بُيُوتَهُمْ لَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُمْ كُلَّ إِمْكَانَاتِهِمْ وَطَاقَاتِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتَقْبَلَهُ المُسْلِمُونَ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ الاسْتِقْبَالُ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَوَادَعَ يَهُودَ، وَأَقَامَ بُنْيَانَ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ. وَجَاءَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ بِابْنِهِ قَيْسٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدَّمَهُ لَهُ، وَقَالَ لَهُ: هَذَا خَادِمُكَ قَيْسٌ، وَوَجَدَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَخَايِلَ الذَّكَاءِ، وَعَلاَمَاتِ القُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَتَفَرَّسَ فِيهِ النَّبَاهَةَ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ، وَأَضْفَى عَلَيْهِ العَطْفَ، فَكَانَ عِنْدَهُ كَصَاحِبِ الشُّرَطِ عِنْدَ الأَمِيرِ.

وَخَدَمَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَشْرَ سَنَوَاتٍ تَقْرِيباً، شَارَكَ أَثْنَاءَهَا فِي بَعْضِ المُهِمَّاتِ، فَقَدْ حَمَلَ لِوَاءَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَعْضِ الغَزَوَاتِ، وَجَاهَدَ فِي بَعْضِ السَّرَايَا الَّتِي كَانَ يُرْسِلُهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى هَذِهِ الجِهَةِ وَتِلْكَ، فَقَدِ انْخَرَطَ فِي السَّرِيَةِ الَّتِي قَادَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ إِلَى بَعْضِ بُطُونِ جُهَيْنَةَ وَالَّتِي شَارَكَ فِيهَا أَيْضاً أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. وَاسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الصَّدَقَةِ. وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَشَارَكَ أَيَّامَ خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي حِمَايَةِ المَدِينَةِ، وَبَعْضِ الأَحْدَاثِ، وَلَمْ يَنْطَلِقْ إِلَى الجِهَادِ، وَلَمْ يُشَارِكْ بِصُورَةٍ وَاسِعَةٍ لِمَوْقِفِ وَالِدِهِ مِنْ البَيْعَةِ.

وَفِي عَهْدِ الخَلِيفَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، انْطَلَقَ وَالِدُهُ سَعْدُ إِلَى الجِهَادِ بِالشَّامِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتُشْهِدَ. وَسَارَ بَعْدَهَا قَيْسٌ إِلَى الجِهَادِ فَشَارَكَ فِي فَتْحِ مِصْرَ، وَاخْتَطَّ لَهُ دَاراً فِيهَا. وَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ مُدَّةٍ.

وَلَمْ يَشْتَرِكْ فِي الأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ الخَلِيفَةَ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، وَإِنَّمَا وَقَفَ عَلَى جَانِبٍ خَاصٍّ مَعَ

الأَنْصَارِ، يَحْرَصُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الخَلِيفَةِ وَيَعْمَلُ عَلَى الشَّدِّ مِنْ أَزْرِهِ.

وَلَمَّا آلَتِ الخِلاَفَةُ إِلَى عَليٍّ بنِ أَبي طَالِبٍ، بَعَثَهُ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ وَالِياً مِنْ قِبَلِهِ عَلَى مِصْرَ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَدَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ جَهْدٍ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ مِنْهَا الوَالِي السَّابِقُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَعْدِ ابنِ أَبِي سَرَحٍ، وَتَسَلَّمَهَا مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حُذَيْفَةَ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قُتِلَ. وَأَخَذَ قَيْسُ البَيْعَةَ لِعَلِيٍّ مِنْ عَامَّةِ أَهْلِهَا إِلاَّ فَرِيقاً اعْتَزَلُوا النَّاسَ، وَآوَوْا إِلَى (خَرْبَتَا) يَطْلُبُونَ بِثَأْرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، وَلَكِنْ لاَ يُقَاتِلُونَ أَحَداً، وَلاَ يَشُقُّونَ عَصَا الطَّاعَةِ، فَأَمْهَلَهُمْ قَيْسُ وَسَارَ فِي البِلاَدِ سِيرَةً حَسَنَةً وَضَبَطَ أَمْرَهَا. إِلاَّ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ عَلِيٍّ كَانُوا يُصِرُّونَ عَلَيهِ أَنْ يَأْمُرَ قَيْساً بِقِتَالِهِمْ أَوْ إِعْطَاءِ البَيْعَةِ حَتَّى لاَ يَبْقَى فِي مِصْرَ مُعَارِضٌ، فَطَلَبَ مِنْهُ عَلِيٌّ ذَلِكَ، فَرَأَى أَنَّ رَأْيَهُ هُوَ الأَصْوَبُ، فَتَرَكَ مِصْرَ، أَوْ أَنَّ عَلِيّاً عَزَلَهُ، وَبَعَثَ مَكَانَهُ الأَشْتَرَ النَّخْعِيَّ، وَلَكِنَّهُ مَاتَ فِي الرَّمْلَةِ مَسْمُوماً قَبلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا، وَاضْطَرَّ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يُثْبِتَ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى مِصْرَ، رَيْثَمَا يَرَى رَأْيَهُ، وَانْتَدَبَ أَهْلَ الكُوفَةِ لِمُسَاعَدَةِ إِخْوَانِهِمْ أَهْلَ مِصْرَ وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا، وَعِنْدَمَا أَصَرَّ عَلَيْهِمْ سَارَ مِنْهُمْ جُنْدٌ قَلِيلٌ، وَمَا

وَصلُوا إِلَيْهَا حَتَّى كَانَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ قَدْ قُتِلَ وَدَخَلَهَا عَمْرُو بنُ العَاصِ .

اتَّجَهَ قَيْسٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى المَدِينَةِ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ مِنَ الوَفَاءِ التَّوَجُّه إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُ وَاجِبَةٌ، فَسَارَ إِلَيْهِ، وَكَانَ مَعَهُ فِي حُرُوبِهِ، فِي صِفِّينَ، وَفِي النَّهْرَوَانِ، وَكَانَ أَحَدَ الأَبْطَالِ، وَيَحْمِلُ لِوَاءَ الأَنْصَارِ فِي تِلْكَ المَعَارِكَ، وَيَقُولُ:

هَذَا اللِّوَاءُ الَّذِي كُنَّا نَحُفُّ بِهِ
مَعَ النَّبِيِّ، وَجِبْرِيلٌ لَنَا مَدَدُ
مَا ضَرَّ مَنْ كَانَتِ الأَنْصَارُ عَيْبَتَهُ
أَلاَّ يَكُونُ لَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحَدُ

وَاسْتُشْهِدَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، إِذْ غَدَرَ بِهِ أَحَدُ الخَوَارِجِ ، وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُلْجَمٍ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - وَعَلِيٌّ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ. وَالْتَفَّ النَّاسُ حَوْلَ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَسَارَ لِقِتَالِ مُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَى مُقَدَّمَةِ الحَسَنِ . غَيْرَ أَنَّ الحَسَنَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ آثَرَ وَقْفَ نَزِيفِ الدَّمِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَصَالَحَ مُعَاوِيَةَ وَبَايَعَهُ.

لَمْ يَقْبَلْ قَيْسٌ مَا قَامَ بِهِ الحَسَنُ، وَرَفَضَ الدُّخُولَ فِي طَاعَةِ

مُعَاوِيَةَ، ثُمَّ اسْتَشَارَ جُنْدَهُ فِي العَمَلِ ، أَمُتَابَعَةُ القِتَالِ أَمْ طَلَبُ الأَمَانِ؟ فَرَأَوْا الأَمَانَ، فَأَخَذَ لَهُمُ الأَمَـانَ ، وَسَارَ بَعْدَهَا إِلَى المَدِينَةِ.

سَارَ قَيْسٌ مَعَ وَفْدٍ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى الشَّامِ ، فَبَايَعُوا الخَلِيفَةَ بَعْدَ عِتَابٍ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَقَيْسٍ وَصَلَ إِلَى الغِلْظَةِ أَحْيَاناً، وَقَـدْ أَكْرَمَ مُعَاوِيَةُ قَيْساً وَالوَفْدَ، وَاسْتَمَرَّ فِي تَقْـدِيرِهِ لَهُ حَتَّـى تُوفِّـيَ قَيْسٌ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ مُعَاوِيَةَ، وَأَغْلَبُ الظَنِّ فِي سَنَـةِ تِسْـعٍ وَخَمْسِينَ ـ واللَّهُ أَعْلَمُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ قَيْسِ بنِ سَعْدٍ وَعَنْ بَقِيَّةِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.